معركة تامدة (23 ديسمبر 1845)، مواجهة تاريخية بين الأمير عبد القادر والفرنسيين

The battle of Temda (December 23, 1845), the historical encounter between Emir Abdelkader and the French

الجيلالي طاهري، عيسى زريكي

جامعة عمار ثليجي، الأغواط.

d.tahri@lagh-univ.dz

ت. الارسال: 25. 10. 2021	ت. المراجعة: 26. 11. 2021	ت. القبول: 27. 11. 2021

الملخص:

تسقط هذه الدراسة الضوء على معركة تاريخية من معارك الأمير عبد القادر مع قوات الاحتلال الفرنسي. إن معركة تامدة التي وقعت في 23 ديسمبر 1845 وكان مسرح أحداثها في خنق تامدة بجبل بوشطوط شمال تيارت، قد مثلت حدثا بارزا كمواجهة حقيقية فريدة مع الأمير بعد مضي أكثر من سنتين على ملاحقته عبر ربوع الغرب الجزائري. اعتمدت هذه الدراسة أساسا على شهادتين فرنسيتين ترويان تفاصيل المعركة ونتائجها. بلغ فيها عدد ضحايا الجانب الفرنسي إلى 10 قتلى من ضباط الصف و20 جريحا من بينهم ضابطان و60 حصانا مقتولا، في حين يصعب الجزم بحصيلة خسائر الأمير لغياب المصادر. يمكن القول إن معركة تامدة كانت مواجهة منتظرة نتيجة لتضييق الخناق على الأمير من خلال قطع مساعدات المغرب الأقصى وانتشار القوات الفرنسية في أقطار الإقليم الوهراني. إلا أنها، بالإضافة لمشاركة الشريف بومعزة ورجاله فيها، قد أظهرت مدى صلابة الأمير وسرعة تحركاته في سعيه الحثيث إلى إعادة بعث روح المقاومة.

الكلمات المفتاحية: الأمير عبد القادر؛ معركة تامدة؛ الشريف بومعزة؛ المارشال بوجو.

Abstract:

This study sheds light on one of Emir Abdelkader's historical battles against the French occupation. The battle of Temda which was fought on December 23, 1845 near Kheneg Temda of Djebel Bouchtout in the north of Tiaret represents a significant event as a real encounter with Emir Abdelkader after two years of tracking in the Western regions of Algeria. This study is based on two French testimonies on the details of this battle and its consequences. The number of French victims reached 10 non-commissioned officers killed, 20 wounded, including two officers and 60 horses killed. While it is difficult to determine the number of Emir's losses due to the absence of historical sources we can say that the battle of Temda was a long awaited encounter as a result of the siege imposed on Emir Abdelkader by cutting off aid from Morocco and the deployment of French forces throughout the Oranian region. But, in addition to the participation of Sherif Boumaza and his men, this battle showed the Emir toughness and how fast his movements were in his relentless quest to revive the spirit of resistance.

Key words: Emir Abdelkader; Battle of Temda; cherif Boumaza; marshal Bugeaud.

.

المؤلف المرسل: الجيلالي طاهري، **الإيميل**: d.tahri@lagh-univ.dz

مقدمة:

في السنوات الأربع التي تلت سقوط الزمالة (16 ماي 1843)، وحتى انتهاء مقاومته باستسلامه في 23 ديسمبر 1847، سعى الأمير عبد القادر إلى مواصلة المقاومة واستقطاب القبائل إلى الجهاد، ورغم قدوم المزيد من التعزيزات الحربية الفرنسية إلا أن الأمير استطاع شن الغارات، وصد الهجمات والثبات في كل المعارك. وإنه لمن المهم القول إن الأبحاث التاريخية والجزائرية منها خصوصا، قد تناولت بكثير من العناية مختلف مراحل مقاومة الأمير عبد القادر، وسيكون من المفيد تقديم إضافة أخرى حول معركة من معارك الأمير المثيرة عدت عليها عوادي الزمن.

يمكننا اعتبار معركة تامدة كواقعة مهمة في زمانها، إذ أنها جرت في سنة صعبة على الأمير بعد توالي النكبات عليه وزيادة الحصار من قبل الفرنسيين، خصوصا بعد قدوم تعزيزات عسكرية جديدة خريف 1845. ولأنها أيضا كانت صعبة على الفرنسين رغم استنفادهم لكل طاقاتهم البشرية والمادية للعثور على الأمير طمعا في القضا عليه. ولإظهار هذه الأهمية، كان لزاما علينا في هذه الدراسة البحث عن إجابات للأسئلة التالية: ما هو الإطار الزماني لهذه المعركة؟ ما هو إطارها المكاني؟ ما هي تفاصيل أحداثها؟ ما هي نتائجها؟ وكيف ترددت أصداؤها؟ فنرسم بكل ذلك صورة تاريخية عامة عن حدث تاريخي هام في سلسلة الكفاح الجزائري ضد الاستعمار.

دارت أحداث هذه المعركة بشمالي تيارت في 23 ديسمبر 1845 واصطلح عليها بمعركة تامدة نسبة إلى المضيق الذي وقعت فيه. فهذه الدراسة تجعل من هذه المعركة موضوعا لها من خلال شهادتين فرنسيتين ومن خلال البحث في جغرافيتها، وأردنا من خلالها جمع تفاصيل أحداث هذه المعركة وتحديد نطاقيها: التاريخي والجغرافي، وكذا نتائجها على قدر ما سمحت به المعلومات المستقاة من المصادر المتوفرة.

1. الإطاران الزماني والمكاني للمعركة:

1.1. الإطار الزماني:

رأى الفرنسيون بعد محرقة الزمالة في 16 ماي 1843، ونهب ممتلكاتها على يد خيالة الدوق دومال، أن الحظ قد استدار إليهم وأن استتباب الأمر قد قرب. وبالرغم من ذلك وعلى عظم الحدث بقي الأمير ثابتا مع جنوده الذين بلغوا 5000 (تشرشل، 2009: 280)، وأبقوا إقليم وهران مسرحا محتدما بالصراع بين مقاتلة القبائل التي نكثت العهد وبين مجابهة الطابور الفرنسي. وفي ظل هذا الصراع كاد الأمير نفسه أن يسقط ضحية غارة من كتيبة لامورسيير في 22 سبتمبر 1843 لما كان معسكرا قرب زاوية سيدي يوسف، إلا أنه استطاع جمع قواته والانسحاب (تشرشل، 2009: 280). وبعد هاتين النكبتين، استشهد الخليفة محمد بن علال بن سيدي امبارك بمعركة الواد المالح في 11 نوفمبر من نفس السنة (L'illustration, 1843: 226؛ المزاري، 1990: 217)، الأمر الذي جعل المارشال بوجو يهنئ حكومته قائلا: "إني أعلن على الملأ وبكل جرأة أن كل قتال جدّي قد انتهى" (تشرشل، 2009: 284).

زاد التضييق في السنة الموالية على الأمير عبد القادر، خصوصا بعد رضوخ سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن إثر هزيمته في معركة وادي إيسلي في 6 أوت 1844 والتي تلاها توقيع معاهدتي طنجة في 10 سبتمبر 1844 ثم معاهدة لالة مغنية في 18 مارس 1845 (بلعريبي، 2017: 99-111). إلا أنه في هذا الشهر من سنة 1845 ظهر الشريف محمد بن عبد الله المدعو بومعزة (الملحق 1) في منطقة الظهرة وسهل الشلف (تشرشل، 2009: 294) وابتدأ مقاومته في ربيع 1845، أما الأمير فلم يزل يستميل القبائل باللسان والسيف ولم يزل في تنقلاته بالإقليم الوهراني حتى ليلة 22-23 سبتمبر 1845 حين قضى على حامية فرنسية كاملة في معركة جبل كركور وقتل قائدها المقدم مونتانياك (المزاري، 1990: 225 ؛ Rousset, 1889 :73)، ثم حاصر قبة سيدي ابراهيم في اليوم الموالي وأسر عددا من الجنود، وفي 28 سبتمبر 1845 استسلمت فرقة عسكرية كاملة في عين تموشنت وبلغ عدد الأسرى 600 شخص (تشرشل، 2009: 295).

بعد هذه الأحداث وأخرى، أحست فرنسا بخطورة الوضع وبعد طلب التعزيزات من لامورسيير وكافينياك، قدم المارشال بوجو في 15 أكتوبر 1845 بقوة إضافية قوامها 120000 جندي (تشرشل، 2009: 296)، لتبدأ ملاحقة مضنية تجاوز مجموعها سبعة إلى ثمانية مائة مرحلة (أكثر من 3500 كلم) من الغرب إلى الشرق ومن الصحراء والهضاب إلى القمم الثلجية والقبائل الكبرى (Rousset, 1889 :74). ثم بلغ إلى الجنرال يوسف أن الأمير قد أغار على أولاد شعيب قرب طاقين[1] في 21 نوفمبر 1845 فجمع قوته المكونة من فرقة الدرك وفرقتين من قناصي إفريقيا وفرقتين من الصبايحية واتجه إلى قوجيلة[2] فلم يعثر عليه ثم منها إلى ثنية الحد لعل الأمير يهاجم أولاد عياد ولكنه باء بالفشل (Rousset, 1889 :75-76). وظل الأمير متنقلا في الونشريس دون أن يُدرَك حتى كانت واقعة تامدة في أواخر شهر ديسمبر من سنة 1845.

2.1. الإطار المكاني:

جرت أحداث المعركة عند خنق تامدة وهو مضيق يفصل جبل بوشطوط (922-946 متر) من الشمال إلى الجنوب ويبعد عن تيارت بحوالي 23 كلم إلى الشمال الغربي (الملحق 2)، وبه تسمى اليوم بلدية تامدة على نحو 6 كلم جنوبه على الطريق الرابط بين بلديتي قرطوفة والرحوية. يشير التقرير الذي أرسله المارشال إلى وزير الحربية (الملحق 3) أن الأمير عبد القادر كان معسكرا شمال جبل بوشطوط، وبجمع القرائن من الروايات الفرنسية فإن معسكر الأمير كان في السفح الشمالي من الجبل. والسؤال الذي يتبادر للذهن هو: أين كان معسكر المارشال الذي انطلق منه الجنرال يوسف بخيالته صباح يوم 23 ديسمبر ثم لحق به المارشال نفسه؟

من خلال رسالة المارشال التي أرسلها من معسكره وشهادة أوغست دوغا (Auguste Dugat) في كتابه، يمكننا تعيين موقع المعسكر آنذاك استنادا إلى الخرائط الفرنسية القديمة. يذكر المارشال أن معسكره كان بمصب يجمع

1. طاقين هو الاسم القديم لبلدية زمالة الأمير عبد القادر التابعة لدائرة قصر الشلالة بولاية تيارت.
2. جبل في الشمال الغربي لطاقين (1279م)، يقع حاليا ببلدية الناظورة بدائرة المهدية بولاية تيارت.

واديين هما: واد رهيو القادم من الشرق وواد دقيقس القادم من الجنوب، وهذا المصب يقع شمال خنق تامدة، ثم إن دوغا أشار أنهم قدموا ليلة 18 ديسمبر إلى معسكر المارشال عند جبل البرحال قرب واد رهيو (Dugat, 1846: 280)، وهذا يدلل على ما أثبتناه في الخريطة (الملحق 2). ومن المهم القول أن معسكر الأمير لم يبعد سوى 7 كلم عن معسكر المارشال، حتى أن دوغا ذكر أنهم في آخر يوم 18 ديسمبر لمحوا مفرزة من خيالة الأمير ليست بعيدة منهم غير أنهم لم يهموا اللحاق بها لسرعتها (Dugat, 1846: 280). وهذا الأمر يشير إلى حقيقة تحركات الأمير التي تمتاز بالسرعة والخفة ما مكنه من التحرك السلس في إقليم مليء بالكتائب الفرنسية. وهنا نورد تعجب كامي روسي (Camille Rousset) من كل ذلك حين يقول: "أي جرأة! لقد كان محاطا بخمسة رؤساء للجيش: المارشال، يوسف، كومون، سانت آرنو وبيليسيي" (Rousset, 1889 :77).

2. رواية شاهد على المعركة:

تفاصيل هذه المعركة أوردها أوغست دوغا -وكان ممن شاركوا فيها- في كتابه الحرب في إفريقيا بعد أن خصص لها فصلا كاملا وهو الفصل الثامن عشر تحت عنوان: " مواجهة مع عبد القادر أو معركة تامدة" (Dugat, 1846: 289-308)، كتب فيه:

"مواجهة خيالتنا مع خيالة عبد القادر هي مواجهة فريدة في مآثر حربنا الإفريقية، قد أثارت وغاضت أو عقّبت بألف وجه مختلف، على قدر الانفعالات الصغيرة للكبرياء، الغصص أو النفور التي أثرت شيئا فشيئا فيمن شهد أو تفرج من بعيد على هذه المعركة المثيرة للفضول. ألتزم إلى قناعاتي وإلى الحقيقة، أن أذكر هاهنا سردا صادقا لهذه الواقعة العسكرية الباهرة التي تشكل بالتأكيد إحدى أجمل صفحات تاريخنا الجزائري.

كان ذلك في 23 ديسمبر، بمخيمنا في رهيو، أعطى المارشال أوامره، وقد أحاط بأخبار الجوار وقوة ومعسكر عبد القادر، وفي صباح هذا اليوم، وخلال مسالك صارت جد خطرة بعد أيام من الأمطار، سار أربعمائة خيال تحت إمرة الجنرال يوسف في اتجاه تيارت أين ينتظرنا بن محي الدين أخيرا.

تحفز سير خيالتنا –كما تصورنا–باعتقاد كل واحد أن الصدام هذه المرة مع خصمنا المخيف لا مفر منه. لذلك حثثنا السير قدر ما سمح به تعب خيولنا وعوائق الطريق، ولكن مطايانا وقد أرهقت بالسير المنهك ليلا ونهارا صارت تتقدم لاهثة بدون نشاط وما إن وصلنا لمدخل واد تامدة حتى صار بالإمكان رؤية الخيالة العرب وكانت خيولنا في غاية الإرهاق، وتركت خمسون منها خلفنا بعد أن صارت غير قادرة على المتابعة.

ولكن عبد القادر هنا، يتقدم بفخر برايات مرفوعة، وأهملنا مؤخرة صفوفنا لنشاهد بكل أعيينا اللوحة المدهشة المعروضة لنا. يحدث هذا أمامنا على خلفية خضراء في واد واسع يغلب عليه في الأفق هضاب منفصلة بأخاديد عميقة.

يسمى هذا الوادي "تامدة": إلى اليمين نلحظ بعض الخيالة تحرس كثيرا من البغال والجمال المحملة بأثاث الأمير، وقد أظهرنا أننا ذاهبون نحوهم حتى نجذب بهذه المحاولة أنظار خيالة الأمير كاملة. نجحت حيلة جنرالنا وسرعان ما تركز انتباهنا كاملا نحو الشمال حيث مشهد مهيب حتى أقدم ضباطنا في الجيش الإفريقي لم يكن معتادا عليه فقد أدهشنا كثيرا.

حوالي ثمانمائة خيال يمتطون خيولا ممتازة مسرجة كلها بأبهة تتحرك نحونا بأرتال. هؤلاء الخيالة هم نظاميو عبد القادر وهو ذاته يتقدمهم في الوسط متبوعا برايته البيضاء، وبان لنا أن المواجهة صارت وشيكة وأن عدونا المختال قد قبل أخيرا المعركة. بهذا المنظر، صعد الدم الفرنسي إلى جباه جنودنا وانسلت دمعة حماسة وحرقة على خدود شجعان الدرك السمراء، قدماء القناصة الإفريقيين والصبايحية المخلصين الذين يشكلون خيالتنا، وبحماسة مفعمة أسرعنا في الركض.

يقدم نحونا قائد العرب بصمت، قوي بكثرة عدده وقوة أحصنته وتحمس أتباعه أكثر خيالة الجزائر تمرسا، وسرعان ما صرنا على بعد ثلاثين خطوة من فرقة النخبة هذه لنتشابك إذن في المعركة، قلّد عبد القادر تحركاتنا ونشر أتباعه وأصبحت الخيالتان وجها لوجه. من السهل كثيرا معرفة وتمييز هذا الرجل الأعلى مقاما حقيقة، لباسه هو لباس نظامي معهود: برنوسان واحد أبيض والآخر أسود يكسوانه من الرأس للقدم، يمتطي حصانا قويا أبيض يضرب الأرض برشاقة فائقة، ويقوم أمامه خيال يحمل راية واسعة من الحرير الأبيض ترفرف طياته من الريح، ونرى بوضوح يدين مفتوحتين

مطرزتين في الوسط وهلالا يعلو السهم المتلألئ. وتحيط بالأمير قيادة أركان متألقة من القادة العرب مكتسية ببهاء نادر، وبإشارة منه تبدو كأمر، كشفت أخيرا عن التأثير الغريب الفاتك الذي يمارسه بسيادة على العرب.

بومعزة المشهور، لطالما اعتقدنا أنه ميت أو مسجون، ها هو يقف في وسط الكتيبة ويبدو أنه يقود الجناح الأيمن ونميز أمامه رايته الخضراء منشورة يلوح بها أحد نظامييه علانية. الفرقتان المتعاديتان بقيتا لوهلة للملاحظة: يجب أن نترك خيولنا تسترجع أنفاسها وننتهز لحظة الراحة هذه لنعجب بخيالته المتفاخرة والقوية، الممتطية لأجود الأحصنة من نوميديا القديمة. أكثرهم مسلحون ببنادق وسيوف فرنسية، لباسهم فاخر جعلهم في أبهة، ولم نستطع دفع شعور يشبه تقريبا الرغبة برؤية هؤلاء الرجال الأقوياء، الزاهدين، الصبورين.

بالنسبة إليهم، وهم في حالة الدفاع، فإنهم يأخذون بالاعتبار مجموع تحركاتنا، لباسنا النظامي، خضوعنا الفوري للقيادة، شدة ضباطنا وهو على رأس كتائبهم. أدهشنا صمت خيالة عبد القادر، ولكنه انكسر فجأة ببعض الصرخات المنعزلة: أرواح، أرواح (تعال، تعال) ثم تم إطلاق عام، ثمانمائة مدفع بندقية قذفت بالموت نحو خيالتنا.

استقبلنا وابل الرصاص هذا بجلد وثبات، سقط بعض شجعاننا هنا إلى الأبد، في حين جرح آخرون وقتل الكثير من الخيل تحت فرسانها. لكن في هذه اللحظة تقدم الجنرال يوسف إلى الوسط وأمام وحداتنا المقاتلة متقلدا سيفه، وبإيعاز منه بدأت حملة جريئة فانحدر الثلاثمائة وخمس خيالة الموجودين (ولكن على خيول منهكة) متقلدين سيوفهم نحو الخيالة البدوية الجاهزة والمرتاحة.

واجه عبد القادر مرة أخرى معنوياتنا العالية ولم يتوقع صدمتنا، فقوتلت أعقاب جيشه حتى ترك أرض المعركة بعد أن لوحق بجد من تل لآخر. بعد ساعة من الملاحقة العنيدة وبسبب خيولنا المتعبة أضحى لزاما على الجنرال التوقف لساعات ثم التقهقر إلى جيش المارشال حيث ينتظرنا متاعنا وغذاؤنا.

تم هذا الرجوع في هدوء كبير، رغم مواصلة بعض البدو الرجوع على أعقابنا –حسب نظامهم الحربي–يطلقون علينا من بعيد نيرانا منعزلة. وصلت إلينا في المساء المشاة الزواف المرسلون من المارشال يرأسهم العقيد لاميرو

(Lamirault)، فتلقت جرحانا وموتانا ودخلنا إلى معسكر المارشال في التاسعة مساء، تنتظرنا موسيقى مختلف أركان الجيش محتفية بنجاحنا".

1.2. تحليل شهادة أوغست دوغا:

قدم أوغست دوغا ضمن التعزيزات الإضافية التي وصلت إلى الجزائر بقيادة المارشال بوجو في 15 أكتوبر 1845، وفي 18 من هذا الشهر بدأ دوغا سرد الأحداث في كتابه "الحرب في إفريقيا" إلى أن ختمه بعودته إلى الديار في 19 جانفي 1846. تمثل معركة تامدة الواقعة الحربية الوحيدة في هذا الكتاب والتي كان دوغا شاهدا عليها، فقد اشتمل في عمومه على وصف عام لخط سيرهم وأماكن تخييمهم والأحداث العامة في البلاد تلك السنة.

خصص دوغا الفصل ما قبل الأخير من كتابه لسرد شهادته حول معركة تامدة، إذ كانت هذه الواقعة بعد مضي أكثر من سنة من قدوم التعزيزات الفرنسية وانتشارها في أنحاء الغرب الجزائري بحثا عن الأمير عبد القادر. ويمكننا القول إن معركة تامدة كانت أحد أبرز أحداث سنة 1845 إضافة إلى قيام ثورة الشريف بومعزة ومعركة جبل كركور في 23 سبتمبر ثم واقعة قبة سيدي ابراهيم التي تلتها (المزاري، 1990: 225؛ تشرشل، 2009: 295).

من خلال هذه الشهادة فإن الجنرال يوسف سار بأربعمائة من خيالته صبيحة 23 ديسمبر منطلقا من معسكر المارشال بسفح جبل البرحال ومتجها جنوبا نحو مضيق تامدة أين يعسكر الأمير رفقة ثمانمائة من خيالته. تكونت خيالة الأمير حسب الشهادة من نظامييه ومن رجال الشريف بومعزة، مشيرا أيضا إلى وضوح راية الأمير المعروفة وكذا راية بومعزة الخضراء في الجناح الأيمن. في حين أن الجنرال يوسف كان يقود تشكيلة من الدرك وقناصي إفريقيا والصبايحية.

عدا هذه المعلومات، يضاف إليها وصف لباس الأمير وأبهة خيالته، فإن شهادة دوغا افتقدت تفاصيل أخرى على غرار:مدة المعركة وحجم الخسائر لدى الطرفين وحتى عن دوره هو ذاته، كان يمكن أن تضيف قيمة تاريخية كبيرة لهذه

المعركة. إلا أنه بالاستناد إلى رسالة المارشال بوجو إلى وزير الحربية والمؤرخة في اليوم الموالي للمعركة (الملحق 3)، يمكننا جمع معلومات إضافية أخرى تجبر ما نقص من شهادة دوغا.

وصف المارشال خطته التي تقضي بإحاطة الأمير من الشمال وإبقاء خنق تامدة كمنفذ أخير له يمكنه الانسحاب منه نحو الغرب، على أمل وجود لامورسيير وبيليسيي للقضاء عليه. كما وصف –على غرار دوغا–المشهد العام للمعركة، إلا أنه أضاف أن عدد جنود الجنرال يوسف تراجع بسبب التعب إلى 450 سيافا، وأن مدة المعركة قاربت الساعتين. وفي الساعة الثالثة، كان الأمير قد انسحب تماما من أرض المعركة متجها نحو وادي مينا[3] غرب تاقدمت.

على الرغم من أن المارشال في رسالته صرح بأن عدد القتلى في صفوفه بلغ عشرة، يضاف إليهم عشرون جريحا وستون حصانا مقتولا ثم استشهد بأسماء رجال من مختلف الرتب العسكرية تشريفا لهم بعد هذه المعركة. إلا أنه لم يصرح بخسائر الأمير واكتفى بالقول بأنها كانت أضعاف خسائر الفرنسيين، وأن «. الأسلحة المأخوذة تدل على أن كثيرا من الرجال المعتبرين قد فقدوا الحياة". وعلى العكس من ذلك فقد أشار إلى أن الأمير انسحب تاركا خلفه حوالي عشرين حصانا وعشرة بغال واثنين وعشرين جملا !!

يشترك دوغا مع المارشال في رسالته على تكرار الإشارة إلى الحالة البدنية للجنود الفرنسيين ومدى التعب والإرهاق الذي لحق بهم بعد أيام من الأمطار، على أنها كانت عاملا حاسما في هذه المعركة. ومن المنصف القول إن هذا ينطبق أكثر على الأمير ورجاله الذين واصلوا التنقل لمسافات طويلة في سعي دؤوب لإذكاء نار الثورة. وبالمقابل لم يُخف الكاتبان مدى صلابة الأمير وقوة رجاله، فيصفهم تارة بالنخبة وخيرة خيالة الجزائر، وتارة بأنهم الرجال الأقوياء، الزاهدون، الصبورون، وتارة أخرى بأنهم أكثر خيالة الجزائر تمرسا.

أشار المارشال في رسالته إلى أن الجنرال يوسف وأثناء رجوعه من أرض المعركة لم يهاجم من العرب الذين احتلوا الجبال وذلك طيلة الاحتفال الطويل الذي عبره حتى وصوله إلى المارشال. وعلى العكس من ذلك، صرح دوغا في

3. واد شهير في الغرب الجزائري، منبعه الرئيسي من الجبل الأخضر قرب بلدية فرندة ومصبه بواد الشلف.

شهادته بأن البدو واصلوا إطلاق نيران منعزلة على أعقاب خيالة يوسف أثناء رجوعهم. ومهما يكن من أمر، فإن شهادة دوغا ورسالة المارشال قد عرضتا بقدر من التفصيل جوانبا مهمة من هذه المعركة الصعبة بجغرافيتها وزمانها، والتي استطاع الأمير ورجاله الصمود فيها وإلحاق أضرار معتبرة في صفوف العدو.

3. أصداء ونتائج المعركة:

انتشرت أخبار معركة تامدة في الصحف الفرنسية ثم في بعض كتابات الفرنسيين بعدها إشارة إلى أهمية الحدث في مسيرة الحرب بين الأمير عبد القادر والاحتلال الفرنسي. ومن بين الصحف التي تحدثت عن المعركة نجد جريدة با لونغدوك[4] (13 جانفي 1846)، وجريدة ملاحظ البيريني[5] (21 جانفي 1846)، وجريدة الصحافة (24 فيفري 1846)[6]. ومن الكتاب، فقد ذكرها كامي روسي في كتابه "احتلال الجزائر" (Rousset, 1889 :77) وكذا الكونت ديدفيل ضمن كتابه "الجنرال بوجو من خلال مراسلاته الحميمة ووثائق نادرة" مضيفا على تعليق المارشال بوجو أن "هذه الحادثة كانت جادة جدا" بما يلي: "مقتبس من جريدة الأخبار: "أفادت أنباء مؤكدة بأن معسكر عبد القادر كان بجبل بوشطوط، فقام الدوق ديسلي بترتيباته لأجل مقاتلته، وبحلول ليل 22، سارت كل الخيالة بقيادة الجنرال يوسف، بينما سار المارشال بالمشاة مع بداية النهار كي يحتل مضيقا قد يحاول الأمير من خلاله الهرب.

في وادي تامدة، لاحق يوسف أمتعة الأمير، فكان أن وقعت بيده بعضها حين قدم سبع إلى ثمانمائة فارس لمجابهة أربعمائة وخمسين من صبايحيتنا وقناصينا. وبعد تلاحم عام تراجع خيالة الأمير إلى موضع في الخلف حيث أقام الأمير رايته البيضاء ليلتفوا حولها، ولاحقتهم خيالتنا حتى قتل حصان عبد القادر، واستطاع الجميع رؤية الفرسان العرب

---

4. Gazette du bas-Languedoc, **1846**: 1327 جريدة با لونغدوك، جريدة أسبوعية ثم يومية، سياسية، دينية، أدبية، واقتصادية اجتماعية. تأسست بمدينة نيم الفرنسية وصدر العدد الأول منها في 6 فيفري 1833 واستمر صدورها حتى 29 نوفمبر 1849.

5. L’observateur des pyrennees, **1846**: 916 ملاحظ البيريني، جريدة سياسية، علمية، أدبية، صناعية وإعلانية. تأسست بمدينة بو الفرنسية وصدر العدد الأول منها في 1 مارس 1840 واستمر صدورها ثلاثة أعداد في الأسبوع حتى 1 أوت 1849.

6- La presse, **1846**: 3586 الصحافة، يومية فرنسية، سياسية، أدبية، زراعية، صناعية وتجارية. أسسها إيميل دو جيراردان (Émile de Girardin) وصدر العدد الأول منها بباريس في 1 جويلية 1836 واستمر صدورها حتى سنة 1952.

يسارعون نحو قائدهم ليرفعوه مجددا". ثم اتخذ العدو موضعا ثالثا ليلاحق إليه مرة أخرى، وارتفعت خسائرنا إلى عشرة قتلى وعشرين جريحا، إلى جانب ستين حصانا مقتولا أو ميتا من الإرهاق" (D'Ideville, 1892: 77-78).

اعتبر الفرنسيون معركة تامدة نجاحا كبيرا، فمنذ سقوط الزمالة بقوا يطاردون الأمير في أرجاء الغرب دون نتيجة، وبعد سنتين كانت هذه المجابهة الوحيدة المعتبرة. ومما جاء في مراسلة للعقيد سانت آرنو (Saint-Arnaud) في 27 ديسمبر 1845 يصف فيها ذلك بقوله: "كان المارشال ويوسف يجريان خلف عبد القادر والذي لم يستطيعا إدراكه فقد كان ينسل من بين أصابعهم، ولكني بقيت أراقب وأترصد ظهوره بأحد الوديان الأربعة تحت حراستي" (D'Ideville, 1892: 78).

وبالنتيجة: فقد وظف الفرنسيون معركة تامدة توظيفا سياسيا وأضفوا زخما عليها حتى يغطوا عجزهم عن القضاء على الأمير، ويعلنوا للرأي العام الفرنسي أن عبد القادر قد هزم مرة أخرى وأن أيامه الأخيرة قد قربت. ولكن في الناحية الأخرى، لم يكن الأمير عبد القادر بعد المعركة مستعجلا في مغادرة الونشريس بل عين -كإثبات لسلطته- خليفة جديدا عليه هو الحاج الصغير بن أخ محمد بن علال، ثم الشريف بومعزة خليفة على الظهرة (Rousset, 1889 :78). بالإضافة إلى ذلك فإن معركة تامدة أظهرت نوعا من تكاتف القوى الثورية الجزائرية عند ظهور الشريف بومعزة ورجاله جنبا إلى جنب مع خيالة الأمير.

أسفرت معركة تامدة عن خسائر معتبرة في صفوف الاحتلال وهي تلك التي ذكروها في كتاباتهم، ولكن يبرز السؤال عن خسائر الأمير؟ وهنا يصعب التكهن بها لفقدان المصادر المشيرة إليها، وحتى الفرنسيون أنفسهم لم يذكروها، سوى المارشال ديسلي في رسالته إلى وزير الحربية حيث أشار إليها بغموض واقتضاب يوحي بتوظيف سياسي وإعلامي، فكيف بمن تكبد عناء عد خسائره حتى من الأحصنة ألا يعطي رقما أو أرقاما عن خسائر عدوه من القتلى أو حتى من الأسرى!

الخاتمة:

قدم هذا البحث على شح المصادر لمعركة من معارك الأمير عبد القادر ضد قوات الاحتلال الفرنسي وهي معركة تامدة (23 ديسمبر 1845) التي أسفرت عن عشرة قتلى وعشرين جريحا في صفوف العدو، رغم توالي النكبات على الأمير وتضييق الحصار عليه محليا ودوليا. جرت أحداث هذه المعركة التي دامت ساعتين في خنق تامدة بجبل بوشطوط غربي تيارت. شارك في هذه المعركة الشريف بومعزة مع رجاله وهو الذي سيواصل كفاحه حتى ربيع سنة 1847، وتقضي مشيئة الله أن يكون استسلام الأمير في نفس السنة وبعد عامين كاملين من هذه المعركة (23 ديسمبر 1847).

من الجانب الفرنسي، تولى الجنرال يوسف قيادة كتيبة مكونة من الفرقة التاسعة من القناصين على الخيل، الفرقتين الأولى والرابعة من قناصي إفريقيا، الدرك والصبايحية. إضافة إلى ترقبه لتعزيزات أخرى بقيادة المارشال بوجو ثم من العميد لامورسيير والعقيد بيليسيي. قدمت شهادة أوغست دوغا من خلال كتابه "الحرب في إفريقيا" وصفا عاما لهذه المعركة احتوى في مجمله على معلومات مفيدة إلا أنها غير كافية للإلمام الدقيق بتفاصيل هذا الحدث. في حين أن رسالة المارشال إلى وزير الحربية شملت إضافات مهمة عن أسماء الضباط الذين شاركوا في هذه المعركة وأسماء القتلى والجرحى من مختلف الفرق.

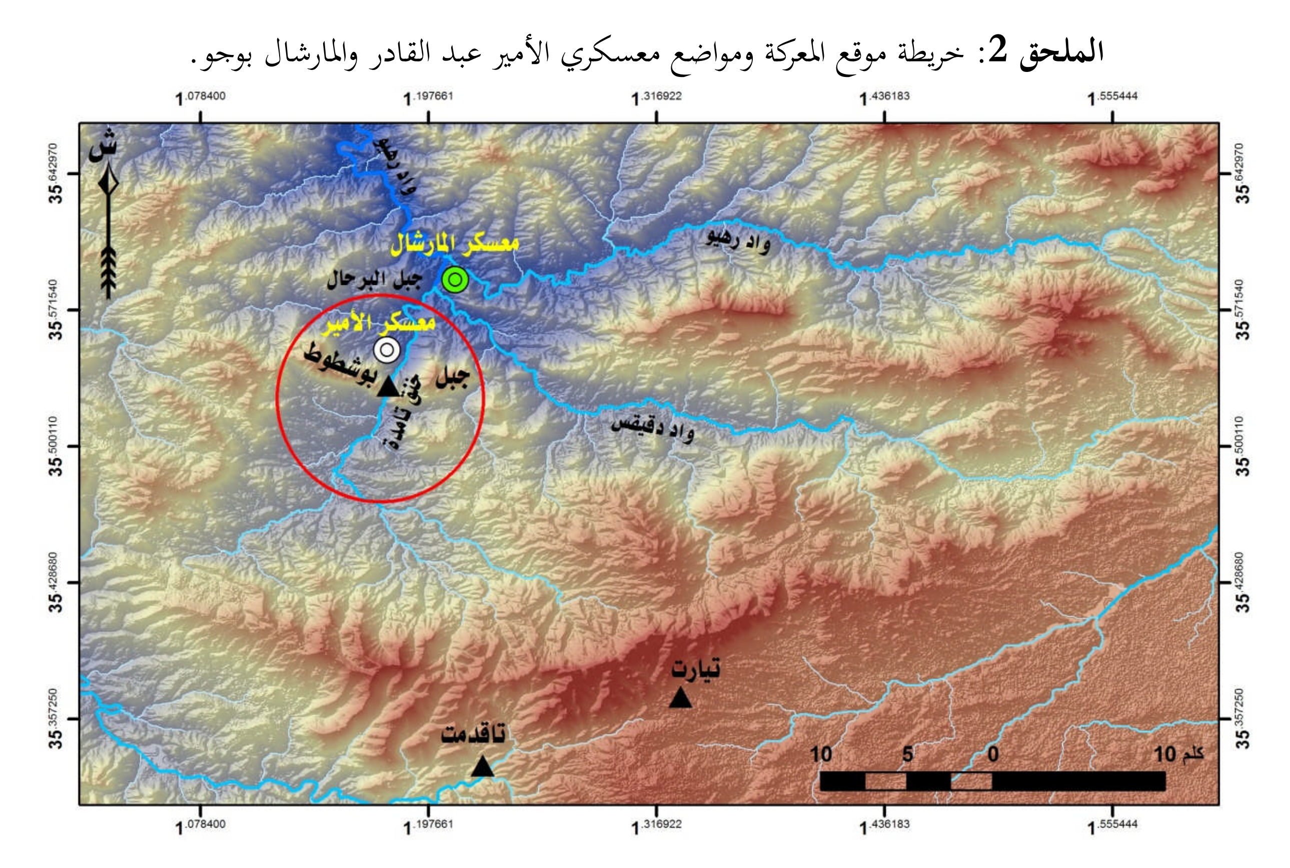
أتاح الاستناد إلى الخرائط الفرنسية القديمة التعيين الدقيق لمواضع معسكري الأمير عبد القادر والمارشال بوجو وكذا موقع المعركة من خلال الخريطة المنشأة التي تساعد على تصور أحداث المعركة عند استقراء الشهادتين المقدمتين في هذا المقال. وبالرجوع إلى الأصداء المنبثقة عن هذه المعركة والتي ظهرت في صفحات الجرائد الفرنسية، يبرز التوظيف السياسي الفرنسي لهذه الواقعة بوصفها نجاحا باهرا ينذر بقرب سقوط الأمير. إلا أن الأمير لم يستعجل مغادرة الونشريس بعدها، بل حاول إثبات استمرارية سلطته على هذه الناحية بتعيين خليفة جديد عليها هو الحاج الصغير بن أخ محمد بن علال الخليفة السابق على مليانة.

الملاحق:

الملحق 1: رسم قديم للشريف بومعزة أعدنا تلوينه استنادا إلى الوصف المذكور في المصدر (L'illustration, 1847: 171).



الملحق 2: خريطة موقع المعركة ومواضع معسكري الأمير عبد القادر والمارشال بوجو.



الملحق 3: رسالة المارشال إلى وزير الحربية

أرسلت هذه الرسالة في اليوم الموالي للمعركة ونشرت بتمامها في جريدة الدستوري[7] (Le constitutionnel, 14 :1846) وفيها:

من السيد المارشال الحاكم العام للجزائر إلى السيد وزير الحربية

المعسكر بمصب دقيقس ورهيو، في 24 ديسمبر 1845

سيدي الوزير

على كثرة السير والسير على الأعقاب، في الليل والنهار، استطاعت قواتي أخيرا الحصول على معركة جادة مع عبد القادر. مساء 22، عزمت على المضي للبحث عنه، علما بأن الأمير السابق لازال معسكرا شمال جبل بوشطوط. لقد ناورت بطريقة لا تترك للعدو سوى الانسحاب من جهة الغرب، آملا وجود العميد لامورسيير والعقيد بيليسيي من هذه الجهة ولو عن بعد.

بوصوله إلى وادي تامدة، وجد السيد الجنرال يوسف قائد الخيالة أثرين؛ على اليمين أثر أمتعة، قد يكون الأمير السابق جهزها حديثا ليطيل دون شك مقامه في التل، وعلى الشمال آثار خيالة كثيرة. توقفت الملاحقة، وشكلت الخيالة سراياها من جهة الشمال وتوجهت نحو العرب الذين يتقدمون كالعادة بكل عزم.

على بعد خمسين خطوة، أرسلت خيالة الأمير السابق وابلا مميتا لكنه لم يوقفنا للحظة ثم اكتمل التلاحم. هذه الخيالة المكونة من كل رجال النخبة الذين اتبعوا عبد القادر في ساعة عسرته –مشتملة ككل عن القيمة السياسية لهذه المعركة–قادت مقاومة عنيفة. ولكنها في الأخير أجبرت على التراجع أمام صلابة قناصينا، صبايحيتنا ودركنا حتى وإن نقصوا بسبب التعب والرحلة الطويلة إلى 450 سيفا.

تراجع الأمير السابق في اضطراب إلى تل مجاور أين التحقت به جنوده في لحظة ملتفة حول العلم الأبيض. بعدها بقليل هوجم من جديد ومقاومتهم كانت أكثر عنادا من الأولى فأتت بنفس النتائج. قتل حصان عبد القادر في الهجمة الثانية، ورأى الجميع مجموعة من الخيالة تسارع حوله حتى يمتطي حصانا آخر. وبذلك أخذ موضعا ثالثا فلوحق إليه بنفس الجرأة.

7. جريدة الدستوري هي يومية سياسية فرنسية تأسست بباريس في 29 أكتوبر 1815 برعاية جوزيف فوشي (Joseph Fouché) تحت اسم "المستقل" ثم عدل بعد ذلك إلى "الدستوري" وأضيف إليه العنوان الفرعي "جريدة تجارية، سياسية وأدبية" في 2 ماي 1819. استمر صدورها حتى 21 جويلية 1914.

في الأخير، قرر ترك أرض المعركة والتراجع ابتداء إلى أكثر من مرحلة، تاركا بيدنا قتلاه وعددا من جرحاه، حوالي عشرين حصانا، عشرة بغال، اثنين وعشرين جملا، خياما ومتاعا. أوكل إلى مجموعة حمل الجرحى بينما قامت المجموعة المتبقية والتي كانت في الواجهة مع العدو بإطعام الخيول مما وجدته من تبن في تلك الأرجاء.

بعد مضي ما يقرب من ساعتين، لم يستطع الأمير السابق أن يجمع حوله فيها إلا حوالي 300 حصان تحت رايته. قام الجنرال يوسف بحركة تقهقر محاولا جر العدو نحو مسيل مقترحا دفعه فيه ثم الهجوم عليه للمرة الرابعة. تابعه بعض الخيالة فقط لكنهم لم يجرؤوا على عبور المسيل.

ساعة بعدها، تراجع الأمير السابق تماما، واتجه ناحية ميناء غرب تاقدمت. ولم يكن إلا بعد أن لم يلاحظ أي من خيالة العدو حين رجع الجنرال يوسف إلى الخلف قليلا إلى مكان بدا له أن يعسكر فيه. لكن العقيد دو لادميرو وصل إليه بكتيبتين ووسائل لنقل القتلى والجرحى، فالتحق بي على التاسعة مساء أسفل دقيقس.

هذه المعركة، سيدي الوزير، شرفت كثيرا خيالتنا إذ أنها حازت تفوقا جادا ضد مجموعة من النخبة التي تزداد عددا بالضعف. ومن الأكيد أن جنودنا الشجعان وجدوا أنفسهم في ظروف حاسمة بسبب قلتهم العددية زيادة على كونهم في مواجهة تجمع من خيرة خيالة الجزائر، محفزين بوجود وأفعال قائد يجلونه ويضعون فيه كامل آمالهم. وحتى أظهر جيدا هذا النصر في عيون العرب، قدمت خيالتي اليوم إلى الأمام وعززتها بثلاث كتائب. هذا الرتل الخفيف سيتموقع للملاحظة لمدة ثلاثة أو أربعة أيام قريبا من تيارت والتي هي تقريبا على خط تقهقر العدو.

بقي لي، سيدي الوزير، أن أحدثكم عن خسائرنا في معركة تامدة، كانت حساسة ولكن خسائر العدو حسب كل التقارير التي جمعتها كانت أربعة أو خمسة أضعاف. الجثامين والأسلحة المأخوذة تدل على أن كثيرا من الرجال المعتبرين قد فقدوا الحياة.

سنأسف لـ 10 قتلى من ضباط الصف، 20 جريحا من بينهم ضابطان، 60 حصانا مقتولا أو ميتا من التعب. لا ميت، لا سلاحا ولا وسيلة تركت بأرض المعركة، ولا واحدا من العرب الذين احتلوا الجبال أثناء المعركة هاجم خيالتنا في الاحتفال الطويل الذي عبرته حتى تصل إلي.

سأوافيكم فيما يلي باستشهادات تشريفية من الجنرال يوسف، ربما تكون كثيرة لكن هذا غير مفاجئ إذا علمنا أنها معركة تلاحم رجلا لرجل والتي دامت لأكثر من ساعتين وعلى عدة دفعات دفع فيها كل جندي وكل ضابط صف بكل طاقته في أفعال فردية. وبكل تأكيد فإنها إحدى أجمل معارك الخيالة التي حدثت في إفريقيا.

يستحق الجنرال يوسف أن يستشهد به في المقام الأول لقيادته هذه المواجهة الصعبة بعزم وشدة وحذر.

الآن، إليكم الأسماء المدونة في تقريره.

- قيادة أركان الجنرال يوسف: السيد الرائد ريفي والسيد كارايون لاتور ملازم أول من الصبايحية أظهرا شدة وذكاء في هذا اليوم وقدما أكبر مساعدة للجنرال يوسف.

- الفرقة الأولى من قناصي إفريقيا: السيد العقيد ريشبونص، السيد قائد المجموعة دوران، النقيب كيفار الذي قتل تحته حصانان، السادة النقباء مساعدي القيادة: دو لابيروس ودو فيدالونك، السيد الملازم الأول ماسي الذي قتل حصانه تحته، السيد الملازم ماشري جريحا، السيد الملازم بارغميلار، ضباط الصف كادلون، بارباست وسانت مارتان، الدركي ميليي، القناصين: فراشون جريحا، بيرو جريحا، حامل البوق فوري جريحا ثم ميتا بجراحه.
- الفرقة الرابعة من قناصي إفريقيا: السيد العقيد طارطاس، السيد قائد المجموعة بيرو دو كولوني، السيد النقيب فالابراغ الذي قتل حصانه تحته، السيد النقيب مساعد القيادة كادي، السيد النقيب لاليو، السيد النقيب وومبار، السيد الملازم الأول سوزاد، السادة الملازمين نال، ليشلان وشوسري، ضابط الصف بيليي، الدركي شينيي، القناصين: بارتيليمي جريحا بست طلقات نارية، باير الذي أنقذ ضابط الصف فياي.
- الصبايحية: السيد النقيب جوزون الذي كان دائما في المقدمة، السيد النقيب دو لاروشفوكو، السادة الملازمين كوريلي وبيربي، ضباط الصف: فايار الذي أعطى حصانه في أكثر اللحظات احتداما إلى السيد النقيب فالابراغ قائلا له: "أنت أكثر نفعا مني"، بيلو، محمد بن سعيد كويليس جريحا وشالامال، الدركي لارشي جريحا، الصبايحية: معمر صحراوي، بوزيان بن عيسى، عبد القادر بن ميرة جريحا.
- الدرك: السيد الملازم الأول باج دو شايو، السيد الملازم الأول ديغاست، ضابط الصف بوطو، الدركي دولانوي، الدركي بويون.
- الفرقة التاسعة من القناصين على الخيل: السيد الملازم الأول لادفاز، السيد الملازم دو لاموت الذي قاد مفرزة حراسة المؤخرة، السيد الجراح لولوار من الفرقة الأولى للقناصين، والسيد مساعد القيادة بيكور من الفرقة الرابعة للقناصين.

البيبليوغرافيا:

المصادر (الكتب والمقالات):

1. المزاري ، ب.ع. (1990): طلوع سعد السعود ، تحقيق الدكتور يحي بوعزيز ،ج2، دار الغرب الإسلامي.
2. تشرشل ، ش.هـ. (2009): حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة الدكتور أبو القاسم سعد الله ، طبعة خاصة ، دار الرائد-عالم المعرفة.
3. بلعربي، ن.د. (2017): معركة إيسلي وانعكاساتها على المغرب الأقصى ومقاومة الأمير، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، المجلد 5، العدد 2، ص99-111.

Sources:

1. Dugat A. (1846) : *La guerre en Afrique*, Librairie Dumaine J. Paris.
2. Rousset C. (1889) : *La conquête de l'Algérie (1841-1857)*, Tome 2, Librairie Plon, Paris.
3. D'Ideville H. (1892) : *Le maréchal Bugeaud, d'après sa correspondance intime et des documents inédits. 1784-1849*, Tome 3, Librairie de Firmin-Didot et associés.

Journaux :

1. Gazette du bas-Languedoc, jeudi 13 janvier 1846, 14ème année, N°1327. Nimes.
2. L'illustration, journal universel, samedi 15 mai 1847, Vol IX, N°220. Paris.
3. L'illustration, journal universel, samedi 9 décembre 1843, Vol II, N°41. Paris.
4. L'observateur des pyrénnées, mercredi 21 janvier 1846, N°916. Pau.
5. La presse, mardi 24 février 1846, 2ème année, N°3586. Paris.
6. Le constitutionnel, journal du commerce, politique et littéraire. Mercredi 14 janvier 1846, N°14. Paris.